فى الأدب الغربى

فى الأدب الروسى

تولستوى

ناحية من نواحى فلسفته

طفل خجول نفور من الناس ، لكنه رقيق المشاعر شديد الحس جياش العاطفة . ثم جندى يحارب فى سبيل الوطن . مستهتر متهتك مبالغ فى الاستهتار . وهو ملحد مغرق فى الالحاد ساخر بالدنيا . ثم هو كهل شديد الايمان قوى الثقة فى الحياة .

وأخيراً تتمخض حياة الروائى الكبير عن شيخ يعتزل ثروته ويترك المدنية بكل زينتها وخداعها ونفاقها ليعمل جنباً إلى جنب مع فلاحيه ، وليفيض قلبه حنانا على الانسانية المعذبة . وليصبح شخصية خالدة على ممر الدهور .

هكذا كان تولستوى وهكذا كانت حياته .

ثم فلسفة قوية مليئة بالحياة هى فلسفة الايمان والعاطفة ، وعاطفة قوية صريحة يدعمها العقل ، ويحركها التأمل ، ويفيض عليها الالهام نورا وعمقا .

هكذا كانت فلسفة تولستوى .

فلن تجد فى فلسفته هذه المشكلات المنطقية ، وهذا اللف والدوران وهذا التكلف والتعمل اللذان تجدهما فى كثير من الفلسفات .

بل لم يحاول تولستوى مرة أن يضع كتابا فى الفلسفة أو يجمع آراءه فى صورة مرتبة منمقة .

ففلسفته فى شتات رواياته التى تتجاوز العشرين . وهى فى شتات أشخاص هذه الروايات التى تعبر كل واحدة منها عن ناحية من نواحى المؤلف نفسه: عن شكه أو سخريته ، عن ايمانه أو الحاده .

ولذلك ففلسفته محببة الى النفس. يقدمها فى لون من أشهى الألوان الى القلب : فى صورة قصة أو فى صورة ذكريات .

وهو لم يكن يكتب ليرتزق من وراء كتبه كمعظم الروائيين . ولم يكن يكتب ليضحك من الناس أو يسخر منهم كما فعل أناطول فرانس . بل كان يكتب معبرا عن عاطفة قوية أحست بالحياة ، وشكت فى الاله ، ثم آمنت به من بعد شك . ثم اعتزت بالحياة من بعد سخرية .

وهو لم يبحث فى الاله وصفاته ، أو فى الروح وطبيعتها ، أو فى الجسد وعلاقته بالروح ، أو فى الزمان والمكان ، أو فى ترتيب الخلق والموجودات ، أو فيما شابه ذلك من أمهات المسائل التى تشغل بال الفلاسفة . بل كانت فلسفته من صنف آخر لا يقل جودة ولا ينقص عظمة ولا عمقا . حاول فيها أن يخفف من الآم الانسانية وعذابها ، وأن يرشد الفرد والجماعة إلى الطريق السوى . وأن يرسم لهما مثلا أعلى يعملان من أجله . فلسفة بحثت فى جميع أمراض الانسانية فشخصت الداء وبينت مواضع الضعف . ثم أخيرا أرشدت إلى أنواع العلاج .

وقد عالج تولستوى سعادة الفرد وكيف يمكن تحقيقها ، ووصف عيوب المجتمع الذى نعيش فيه . وبين سخافاته ومتناقضاته والطريق الى علاج هذه المتناقضات . وبحث فى الدين والعلم والفن وأخيرا فى كل ما يمس المجتمع الانسانى وما يتصل بافراد هذا المجتمع بسبب .

وسنحاول فى هذه العجالة أن نطلعك على ناحية من نواحى فلسفته . ناحية حاول فيها أن يرسم للفرد مثلا أعلى . وأن ينهج له الطريق إلى السعادة التى ينشدها .

* * *

كل منا قد تساءل ما الحياة وما قيمتها ؟ ولماذا نحياها هكذا ؟ أخلقنا لنشقى أو عشنا لنموت ؟

وكل منا مرت به ساعات من السخط على الحياة أو الابتسام لها . لا ندرى لماذا نبتسم ولماذا نسخط ؟

وكل منا يرغب فى سعادة هادئة مطمئنة ، سعادة لا يفوز ولم يفز ويظهر أنه لن يفوز بها ! ومع ذلك فنحن دائبون فى العمل

لها . وهى دائبة فى البعد عنا .

ومر بخلد تولستوى هذه الشكوك وانتابه هذه الحيرة وجرى وراء السعادة . فأقبل يرتوى من منهل الحيـاة : يعربد ويتهتك ويتمتع بكل ما حرم ولذ ، ونال من الحياة مالم ينله غيره .

فهو من اشراف الروسيا ، له من المجد مالهم ، وله من العبيد ما يزيد على سبعمائة . وهو غنى فى غير حاجة الى عمل يرهقه ، أو رئيس يخضع له ، والطبيعة وان لم تزوده بوجـه جميل ، قد أعطته من جمال الروح ورقة العاطفة ما خفف من حدة قبحه ، وقلل من بشاعة منظره ، وتزوج فاخلصت له زوجه ، وتمتع بأشهى ما تصبو اليه نفس من وفاق عائلى وذرية صالحة

ماذا يريد بعد هذا من أطايب الحياة ولذات المعيشة ؟

على أنه لم يفز بالأمل المنشود . ولم يظفر بالسعادة ولا بظلها ، بل كان ينتابه شعور بسخف الحياة وعبثها .

فهى إما ساكنة هادئة ، ولـكنها مملة جافة . وهى إما مضطربة هائجة ، ولـكنها مؤلمة قاسية . وهى فى كل هذا سخيفة من دون معنى ولا غرض ولا غاية واضحة . أيعتزلها كراهب ؟ ولـكن انى له الخبز الذى يملأ بطنه الجائع ؟ وما قيمة حياة يعتزلها المرء ؟ وانى للانسانية أن تعيش اذا قدر لكل فرد أن يعتزل العالم ؟ وهل يجد الانسان فى العزلة راحة وهدوءا ؟

أيحياها كما حيتها مئات الأجيال من قبـــله ، وكما ستحياها من بعده ؟ ولـكن هذه سخافة لا تطاق . وما الذى يحمله على أن يتعذب ويتألم ويقاسى ليكون نعجة من نعاج هذا العالم يسمن ليذبح ، أو يهزل ليمرض ويموت ؟ أيعتقد فى حياة اخرى ليست هذه الدنيا الا مزرعة لها ؟ وما يكون اذن معنى الحياة ؟ أهى تجربة سخيفة ؟ وماذا يمنعنا من اختصار هذه التجربة ؟ ولماذا لا نسرع فنأتى على حياة بائسة لندرك أخرى أسعد منها أو أقل منها سخفا .

وأخيرا ما هى السعادة ؟ وما الطريق اليها ؟ أهى ثروة وضياع وجاه ؟ ولـكن تولستوى جربها فلم تبدد شكوكه ولم تشبع مطامعه بل أصابه منها ملل قاتل لا يدرى كنهه ، وسأم مروع زهده فيها .

أهى درس وقراءة واطلاع ؟ ولـكن تولستوى قرأ وقرأ أحسن ما انتجه بشر ، فلم ترضه هذه القراءة ، ولم تضع حدا لشكوكه ، وأخيرا ما فائدة الاطلاع والمعرفة والعلم ؟

وقف تولستوى من الحياة هذا الموقف ، وأخذ يفكر ويجهد نفسه فى التفكير لعله يوفق الى تعريف للحياة . وأخذ يقرأ لعله يصل الى حل يطمئن اليه أو فلسفة يرضى عنها . ولـكنه حاول عبثا وبدا له أخيراً أن الفكر وأعنات الروية لن يجديا شيئاً . وتملكه يأس وأخلص فيه . ولـكن ما لبث أن أشرق عليه نور جديد : نور الايمان فى الله ، ونور الاعتقاد فى الحياة وفى عظمتها . نور وهاج قوى يقف أمامه العقل خاشعا ، ولا يستطيع العلم المادى بكل جبروته أن يجابهه أو يسخر منه !

* * *

أنريد فهما للحياة ولسر وجودنا فيها ؟ أنريد فوزا بالسعادة ؟ حسن ! فلنعمل ما تطلبه منا الحياة . ولتنفذ مشيئة الله . وما غاية الحياة ؟ هى أن نعمل ونجيد ما نعمله . وليكن عملنا فى سبيل الغير ، ولنضح بأنفسنا فى سبيلهم ، ولنحبهم كما نحب أنفسنا بل أكثر مما نحبها . ولنتعاون معهم ، ولننم جميع قوانا من عقلية وجسمية ، ولنحسن استخدامها فى خدمة الآخرين : التعاون ، الحب ، العمل ، تالوث مقدس هو سر الحياة وسر السعادة . ليمتد حبنا الى جميع أفراد الانسانية . ولنعمل لاخواننا فى البشرية ، ولننس أنفسنا فنكون بذلك قد أدينا مهمة الحياة التى خلقنا من أجلها وفى هذا طمأنينة لنا وهدوء .

لقد أسأنا فهم الحياة . وحسبناها مسرحا لقتال دام يفترس فيه القوى الضعيف ، ويلتهم فيه الـكبير الصغير . ثم اتهمناها بالقسوة وما هى بقاسية بل هى أعز شىء فى الوجود

وبحسبنا السعادة فى هذا النضال السمح ، وبحسبنا الراحة فى هذا القتال العنيف

بالغنا فى الأنانية ، أردنا الحياة لنا وحدنا ، أردنا مالا وجاها وحبا وبنين لأنفسنا ولأنفسنا وحدها

والحياة لا تريد منا هذا ، فالفرد ذرة لا معنى له فى الوجود دون غيره ، ذرة من أصغر ذرات العالم ، فاذا ما اجتمعت هذه الذرات واتحدت وتعاونت استطاعت أن تصل الى أقصى سعادتها وهى مستطيعة أن تنال جميع أمانيها ، فاذا ما اختلفت وتناحرت وتفرقت أصبحت لاشىء . وهى واقعة فى شقاء لاخلاص منه .

لقد ظننا بالحياة شراً ، وقد حاولنا أن نجعل من قانون سخيف

ندعوه تنازع البقاء وبقاء الأصلح قانونا للحياة . فالأفراد فى تنافس ، والأمم فى تناحر ، ومن هذا النزاع الدائم يتولد البؤس واليتم والفقر والآلام ، وتتولد الانسانية عاجزة خادعة ماكرة ضعيفة

لنس هذه الأحقاد مرة واحدة . ولنتعاون ، ولينس الفرد انه خلق لنفسه ، وليجعل غايته خدمة غيره . خدمة أولاده ، خدمة أفراد الانسانية جمعاء ، اذن يخف كل شقاء . وتعم السعادة الجميع . ستقول هذا خيال شاعر وأمل فيلسوف .

ولكن تولستوى لا يقول لك ضح بنفسك لأن فى التضحية نبلا أو جمالا . وهو لا يقول لك كن خيراً لأن الجنة للخير والنار للشرير . وهو لا يزعم أن فى خدمة الآخرين قياما بواجب لا تستطيع أن تفهم من فرضه عليك .

هو يقول لك أحب جارك واعمل لغيرك ، لأن هذا هو قانون الحياة ، ولأنك لا تملك عنه محيدا ، وهو يقول ضح بنفسك لأنك ستضحى بها مرغما إذا أبيت . وهو يقول لك سامح عدوك وأدر له خدك الأيسر اذا أصاب منك الخد الأيمن لأن فى الخلاف شقاء لك وله .

وليس فى هذا جرى وراء خيال أو مثل أعلى يضاف الى غيره من الأمثلة العليا . ولكن جرب بنفسك . اقتنع بأنك خلقت لغيرك وسترى أى سعادة تجلبها عليك هذه التجربة ، لن يخيفك الموت بعد هذا لأنك سترى فيه افساحا للطريق أمام غيرك . لن تعبأ بالآلام تصيبك لأنك سترى فيها تخفيفا لآلام اخوتك من البشر .

أما إذا أبيت هذا ، وضننت بنفسك أن تكون ضحية فى سبيل الآخرين ، فكن أنانيا جشعا وابلغ المجد على اكتاف الناس ، واجمع حولك من متاع الدنيا ما تسرقه وما لا تسرقه ، ولكنك لن تكون سعيدا . وستظل شقيا بائساً ، ولن تشعر براحة مادام لديك ذرة من ضمير . وستمعن الحياة فى السخرية منك ، تجعلك آلة لها تنفذ مشيئتها ، وستكون ضحية على رغم أنفك ، وستعيش خائفا وجلا من الموت أو من خصم قوى وسيؤنبك ، ضميرك ولا يلبث أن يضيع ما أنفقت حياتك من أجله ، سيلتهم مالك وجاهك من هو أقوى منك ، أو لا تلبث أن تموت ، فيتمتع به غيرك ، وبذا تكون الحياة قد انتقمت منك شر انتقام .

وليس معنى خدمتك للغير أو تضحيتك بالنفس أن تنسى ذاتك أو تعتبرها كالا مهملا فى الوجود . اذ هى شرط من شروط الحياة وشرط هام لا تستطيع الانسانية أن تتحقق بدونه ، ولكنها ليست غاية الحياة ، وليس من أجلك وحدك قد كانت الحياة .

وليس معنى هذا أن تكبت غرائزك أو تحمل بفسك مالا تطيق . بل وجه نشاطك إلى ما خلق له . .

فى مثل هذه اللغة البسيطة الساذجة القوية يحدثك تولستوى .

ولا يضير فلسفة تولستوى ان تبدو شعرية عاطفية إذ هى لا تكاد تخرج عما قالته الاديان . فالمسيحية ومن قبلها اليهودية ومن بعدها الاسلام تبشر بما قال تولستوى . وكلها حضت على التعاون وقالت أن المؤمنين اخوة وأحب لغيرك ما تحب لنفسك . وكلها رفعت من شأن العمل للآخرين وكلها حضت على الايثار وكلها امرت بالتقرب الى الله وحده وجعلت منه رمزا للوحدة

لم يأت بجديد . ولكنه أحب أن يثبت أن ما قالته الأديان صحيحا ، وانه عملى ، وانه الطريق الأوحد الى السعادة الفردية والانسانية ، وأحب فوق هذا أن يبين أن ما قالته الأديان ليس مثلا أعلى يصعب تحقيقه ، بل هو الغاية التى لا محيد عنها ، والشىء الذى نعمله كارهين أو راضين .

لقد رأى أن الحياة لا معنى لها فى الافراد مشتين . بل لا يمكن تصورها الا فى الافراد مجتمعين متعاونين . وقد رأى أن للحياة غرضا بسيطا هو ان يلتئم الأفراد ويتحدوا . هو أن تجتمع الذرات الأنسانيه لتصبح ذرة واحدة كبيرة ترجع الى خالقها . وفى هذا الاتحاد كل سعادتها .

ولم ير الحياة الدنيا اعدادا لحياة أخرى كما ترى معظم الاديان بل وجد فيها سلسلة لا تنقطع . فليس فى موت الأفراد انتهاء للحياة . بل موتهم معناه بقاؤهم فى نسلهم ، ومعناه حلقة جديدة قد تكون أحسن استعدادا وأكثر تضامنا .

وهو متفائل راض مطمئن على مصير الانسانية . فهى تسير إلى الوحدة منفذة فى ذلك مشيئة خالقها .

وهو يرى أن كل ما فينا أعد لتنفيذ غاية الحياة . ففيناحب

الحياة لنستطيع ان نحيا، وفينا حب النشاط والحركة وكره السكون حتى تعمل .وفينا الجانب الحيوانى بكل غرائزه لنستطيع أن نعمل . وفينا العقل لنفهم كيف تعمل والى غاية نسير ، وفينا الضمـــير ليؤنبنا وليحاربنا اذا ماحاولنا الحياد عن الغاية المرسومة لنا . وفينا غريزة النسل لتخرج ذرية أقوى تستطيع أن تتمم ما تريده الحياة اذا ما ضعفنا أو متنا .

يعد تولستوى الشقاء الذى نشعر به نتيجة طبيعية لمخالفتنا ضمائرنا التى تفهم وحدها الغرض الوحيد من الحياة . وتنبهنا كلما حدنا عن الطريق المستقيم ، وهذا الشقاء داع الى تفكيرنا فى أنفسنا . والى شعورنا بالحياة وغرضها .

ويعلل تولستوى الحيرة والقلق اللذين يستوليان على المرء بأنهما نتيجة لأهماله واجبه المقدس فى الحياة ، واغفاله العمل ، أو لمقته الآخرين وترك معونتهم . وهذه الحيرة نفسها خطوة أولية نحو الشعور بالحياة والتأمل فيها والوصول الى فهمها .

وهو يرى فى العقيدة والايمان ملجأ حصينا من الشك والتورط فيه . اذ العقيدة النيرة الحية البعيدة عن التعصب . هى التى تدفعك الى العمل وحب الغير وتجعلك طفلا فرحا سعيدا وهى التى تجعلك هادئا قرير العين بالحياة .

قد تقول ان هذا شىء تعرفه . وانه لم يأتك بجديد . ولكن تولستوى لم يحاول ان يبهرك باراء غريبة تضعها بين آلاف الآراء ، ولم يحاول أن يتحفك بطريف الأفكار . بل أراد أن يرشدك الى منهاج السعادة فى الحياة وهو منهاج عملى جربه بنفسه فنجح فيه نجاحا باهراً .

أحب جارك . أحب لكل انسان ماتحبه لنفسك ؛ اعمل لغيرك ، ففى كل هذا سعادتك .

لاتقل ان غيرك لايعمل لهذا ، فليس معنى تقصيره أن تقصر أنت ، ولاتسأل لماذا تكون أنت الوحيد الذى يختط لنفسه هذا الطريق ،

بل اعتقد ان الناس لابد صائرون اليه ، وأن لا مرية فى أنهم منتهون الى اتباعه . فلماذا لاتوفر على نفسك شقاء ؟ ولماذا تضن على نفسك بالطمأنينة والسعادة ؟

ذلك جانب من فلسفة تولستوى . وهناك جانب آخر عالج الرجل فيه المجتمع ومساوئه ، وموعدنا به عدد قادم .

شهدى عطيه الشافعى

خريج قسم الاجتماع والفلسفة من الجامعة المصرية

من الأدب الفرنسى

الطبيعة والانسان

لفيكتور هوجو

شمسُ هذا النهار قد غربت فى ... أفقها خلفَ مكفهرّ السحاب
وغداً تعصفُ الرياح ، ويأتى ... بعدَ ذاك الظلامُ داجى الاهاب
وَيَلِى الفجرُ بعد ذاك مضيئاً ... مُرسِلاً نورَه خلالَ الضباب
فنهارٌ ، فليلة — خطوات الد ... هرِ والدهرُ ممعنٌ فى الذهاب

* * *

سوف تمضى هذى الدهور جميعاً ... سوف تمضى معاً لغير مآب
سائرات على جباهِ الرَّوابى ... ووجوهِ البحارِ ذات العُباب
ومياهِ الأنهارِ وهْىَ جَوَارٍ ... لامعاتٌ مثل اللجين المذاب
وعلى الغاب وهو يَدْوى بأروا ... حِ الأُلى قد قضَوْا من الأحباب

* * *

وستَبقَى وجوه تلك الأواذى ... وستبقى جباهُ تلك الهضاب
البوادى الغضون لا عن مشيب ... أو فتورٍ فى عنفوان الشباب
وستبقى بواسق الغاب ذات الـ ... ـخُضرة المستمرَّة الجلباب
سوف تبقى على الزمان جميعاً ... فى شباب مجدّدٍ وتَصابى
وستَبقى الأنهارُ تحمل من تلـــ ... ـك الرُّبى ما تلقى به فى العُباب

* * *

ذاك ، أمّا أنا فها أنا يَحْنى ... كلُّ يوم رأسى ويُوهِن قابى
وقشعَرِيرةُ البرودة تحت الشمـ ... ـس أمست تَدِبُّ فى أعصابى
وسأقضى نحبى وَشيكا سريعاً ... وسْطَ عيدِ الطبيعةِ المِطْرابِ
وسأمضى ، فلا يَضير مُضِيِّى ... ذلك الكونَ أو يُحِسُّ غيابى

فخرى أبو السعود